وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT
تم تصدير هذا الكتاب آليا بواسطة المكتبة الشاملة
(اضغط هنا للانتقال إلى صفحة المكتبة الشاملة على الإنترنت)

الكتاب : محاسن التأويل
المؤلف : محمد جمال الدين القاسمي
مصدر الكتاب : برنامج تاج الأصول من أحاديث الرسول
[الكتاب] مرقم آليا غير موافق للمطبوع
أعده للشاملة: أبو عبد الله السسقي ومحمد الألخاسي.

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } [1 - 3]

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا في أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحارَبوا كما قال الله تعالى :

{ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت : 67] ، وأما المقسمات بها قبل ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لكل منها ، فعن مجاهد والحسن وغيرهما أن التين الذي يؤكل ، و { الزَّيْتُونَ } الذي يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق ، و الزيتون الذي عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : التين مسجد دمشق و الزيتون بيت المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته : والصواب من القول في ذلك عندنا ، قول من قال { التِّين } : هو التين الذي يؤكل ، و { الزَّيْتُون } هو : الزيتون الذي يعصر منه الزيت ؛ لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له : زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهباً وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة في ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوّز خلافهُ ، لأن دمشق بها منابت التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون . انتهى كلامه . وفيه نظر ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين في تقويم البلاد .

قال صاحب " الذخيرة " في تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون . قال : وقد دعي كذلك لكثرة الزيتون فيه ، وهو قريب المسافة من أورشليم ، وفيه صعد المسيح لكي يرتفع إلى السماء . انتهى .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ويسمى أيضاً طور زيتاً إلى الآن ، على أن فيما صوبهُ ابن جرير ، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد – غير مفهومة ، كما قاله الإمام .

فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون المقسم به ثلاثة مواضع مقدسة .

قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محَالّ ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار :

فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران .

والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمد صلى الله عليه وسلم وفي التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعني الذي كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله عنه عيسى . واستعلن من جبال فاران : يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً صلى الله عليه وسلم . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجوديّ بحسب ترتيبهم في الزمان . ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما . انتهى كلام ابن كثير .

ومرادهُ ببعض الأئمة ، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان ؛ فإنه ذكر ذلك في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " ونحن ننقلها زيادة في إيضاح المقام ، واهتماماً بتحقيقه ، قال رحمه الله فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته صلى الله عليه وسلم : وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء . وبعضهم يقول في الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء – واللفظ لأبي محمد بن قتيبة – : ليس بهذا خفاء على من تدبره ، ولا غموض ؛ لأن مجيء الله من طور سيناء ، إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء ، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا . وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير ، إنزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من اتبعهُ نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال فاران ، وهي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة – وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم – قلنا أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلُّونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمهُ فاران ، والنبيّ الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح ، أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوّه ؟ .

وقال أبو هاشم بن طفر : ساعير جبل بالشام ، منهُ ظهرت نبوة المسيح عليه السلام .

قلت : وبجانب بيت لحم – القرية التي ولد فيها المسيح – قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحي على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحوله من الجبال جبال كثيرة . وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن . والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبيّ ؛ فعلم أن ليس المراد باستعلانه من جبال فاران ، إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم . وهو سبحانهُ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمانيّ فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه ، وقال في الأول : جاء أو ظهر . وفي الثاني : أشرق . وفي الثالث : استعلن . وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى . وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء . ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ، فإن محمداُ صلى الله عليه وسلم ظهر به نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولهذا سماهُ الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً ، والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت ، بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت ، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانيةً . وقد قال صلى الله عليه وسلم : < زُويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها > . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها في القرآن في قوله : { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى وناداهُ فيه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بهذا البلد الأمين وهو مكة الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمهُ هاجر فيه . وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله ، وجعله آمناً خلقاً وأمراً قدراً وشرعاً .

ثم قال ابن تيمية : فقوله تعالى : { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداهُ ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران .

ولما كان ما في التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزماني ، فقدم الأسبق فالأسبق وأما في القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها ؛ وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله ، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات ، فأقسم أولاً بالتين والزيتون ، ثم بطور سينين ، ثم بمكة ؛ لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل ، وكذلك الأنبياء فأقسم بها على وجه التدريج كما في قوله :

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً } [الذاريات : 1 – 4] ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً ، وقد قيل : إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله : { فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ *الْجَوَارِ الْكُنَّسِ } [التكوير : 15 – 16] ، فسماها جوارٍ كما سمى الفلك جواري في قوله : { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ } [الشورى : 32] ، والكواكب فوق السحاب ثم قال : { فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً } [الذاريات : 4] ، وهي الملائكة التي هي أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى : { وَالتِّينِ } يعني به شجرة بوذا مؤسس الديانة البوذية ، التي تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيقي ؛ لأن تعاليم بوذا لم تكتب في زمنه وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية ، ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها .

ثم قال : والراجح عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية أنهُ كان نبياً صادقاً ويسمى : سكياموتي ، أو جوناما ، وكان في أول أمره يأوي إلى شجرة تين عظيمة وتحتها نزل عليه الوحي ، وأرسله الله رسولاً ، فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينجح معه . ولهذه الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم : التينة المقدسة ، وبلغتهم : أجابالا .

قال : ففي هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم ونفعهم في دينهم ودنياهم ، فالقسم فيها كالتمهيد لقوله بعده : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } إلى آخر السورة .

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم . والترتيب في ذكرها في الآية هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى ، فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة في الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها ، كما يبدأ الْإِنْسَاْن بالقسم بالشيء الصغير ، ثم يرتقي للتأكيد إلى ما هو أعلى ، ثم النصرانية وهي أقل من البوذية تحريفاً ، ثم اليهودية وهو أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهو أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل ، بل إن أصولها : الكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً . ومن محاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ، ذكر ديني الفضل : البوذية والمسيحية أولاً ، ثم ديني العدل : اليهودية والإسلامية ثانياً ؛ للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمسامحة مع الناس أولاً . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب . ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينهما ، وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينهما ؛ فلذا جُمع الأولان معاً والآخران كذلك ، وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى ، كما قدم الموسوية على المحمدية لهذا السبب بعينه . ومن محاسن الآية أيضاً الرمز والإشارة إلى ديني الرحمة بالفاكهة والثمرة ، وإلى ديني العدل بالجبل والبلدة الجبلية : مكة ، وهي البلد الأمين . ومن التناسب البديع بين ألفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً في أودية الجبال ، كما في جبل الزيتون بالشام وطور سيناء ، وهما مشهوران بها . فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحي ، وأكرم أماكن التجلي الإلهي على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم في أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

لم ينصرف { سِينِينَ } كما لا ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض ، فهو علم أعجميّ . ولو جعل اسماً للمكان أو المنزل أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة : { سِينِينَ } بكسر السين ، وقرأ بعض السلف بفتحها ، وآخرون : سيناء بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلف في هذا الإسم السريانيّ ، على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية .

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ } [4 – 8]

وقوله تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } أي : في أحسن تعديل خلقاً وشكلاً ، صورةً ومعنًى ، قال الشهاب : الظرف في موضع الحال من الْإِنْسَانْ ، والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر ، أي : قوام أحسن تقويم ، أو { فِي } زائدة والتقدير : قومناهُ أحسن تقويم .

{ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } أي : جعلناه أسفل من سفل ، وهم أصحاب النار لعدم جريانه على موجب ما خلقناهُ عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، فـ : رد بمعنى جعل التي تنصب مفعولين . قال الشهاب : و السافلين العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل للمتعدد والمتفاوت . و { ثُمَّ } للتراخي الزماني أو هو رتبي . وجوز نصب { أَسْفَلِ } بنزع الخافض صفة لمحذوف ، أي : إلى مكان أسفل سافلين ، أي : محل النار ، أو النار بمعنى جهنم . وهذا ما قاله مجاهد حيث قال : في النار ، وفي رواية : إلى النار ، والسافلين على هذا الأمكنة السافلة ، وهي دركاتها . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتنزيل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفل كالأول ، لكان أولى .

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } أي : غير مقطوع أو غير منقوص أو غير محسوب أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير { رَدَدْنَاه } فإنه في معنى الجمع ، لأن المكنيّ عنهُ وهو الْإِنْسَانْ ، في معنى الجنس .

هذا وقد اعتمد ابن جرير في تأويل الآية ، ما روي عن ابن عباس من أن المعنى : ثم رددناه على

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله في شبيبته كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله ، كتب له مثل عمله الصالح الذي كان يعمل في شبيبته ، ولم يؤاخذ بشيء مما عمل في كبره وذهاب عقله ، من أجل أنهُ مؤمن وكان يطيع الله في شبيبته .

وعبارة ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه أي : إلى أرذل العمر إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر ، وذهاب العقل .

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } في حال صحتهم وشبابهم { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } بعد هرمهم ، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم ، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

قال : وإنما قلنا : هذا القول أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله تعالى ذِكره أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت ، ألا ترى أنه يقول : { فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ } يعني بعد هذه الحجج ، ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعاني بما كانوا له منكرين ، وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه ، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان القوم للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجَلَد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء منقطعاً ، استدراكاً لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره ، ويكون الدين حينئذ مبتدأ ، والفاء داخلة في خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له .

وقوله تعالى : { فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ } خطاب للإنسان على طريق الالتفات ، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أي : فما يحملك على التكذيب بالدين ، أي الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل . والمعنى : أن خلق الْإِنْسَانْ من نطفة وتقويمه بشراً سوياً ، وتحويله من حال إلى حال ، كمالاً ونقصاناً ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث ، والجزاء فأي شيء تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى { يُكَذِّبُكَ } إما ينسبك إلى الكذب ، كفسقته إذا قلت له : إنه فاسق ، والباء في { بِالدِّينِ } بمعنى في ، أي : يكذبك في إخبارك به ، أو سببية أي : بسبب إخبارك به وإثباته ، أو المعنى ما يجعلك مكذباً بالدين ، على أن الباء صلتهُ . وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين ، والمعنى : إنه لا يكذبك شيء ما بعد هذا البيان بالدين ، لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً . والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير : قول من قال : ما بمعنى من ، أي : فمن يكذبك يا محمد بعد الذي جاءك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : { فَمَا } استفهام عمن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقائها على أصلها ، كما بيناهُ لك . والداعي لارتكاب هذا أن المعنى عليه أظهر إذا كان المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه إنكار توبيخيّ للمكذبين له صلى الله عليه وسلم بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ } أي : بأحكم من حكم في أحكامه . قال أبو السعود : أي : أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملة تقريراً لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهي وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و أحكم من الحكم أو الحكمة . قيل : والثاني أظهر . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : < بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين > . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

//

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [1 – 5]

{ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } أي : اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى ، أي : مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية ، والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، وللإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية ، بإنزال الوحي المتواتر .

ووصف الرب بقوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ } لتذكير أول النعماء الفائضة عليه صلى الله عليه وسلم منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الْإِنْسَانْ على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً عن سائر الكمالات ، قادر على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم ، أي : الذي أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التي قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكويني . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ؛ ولذلك كرر القول مراراً : < ما أنا بقارئ > . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

، فإنهُ سينزل عليه كتاب يقرؤه وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذي خلق ، أي : الذي أوجد الكائنات التي لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها ؛ لأنك لم تكن تدري ما الكتاب . فكأن الله يقول : كن قارئاً بقدرتي وبإرادتي . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق في سورة سبّح ، دال على ما تعرف به الذات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً ، لأن القراءة علم في نفس حية ؛ فهي تخط ببالك من الله وجودهُ وعلمه وقدرته وإرادته .

أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله – وهو خلاف المتبادر – فيكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقرأ دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه لله لا لغيره ، فلو فرض أنهُ قرأ وجعل قراءتهُ لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله ، وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير في بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله في ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد .

{ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } أي : دم جامد ، وهي حالة الجنين في الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الْإِنْسَان بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيماً لشأنه ؛ إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة وإنما قال : { عَلَّقَ } دون علقة كما في الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن { الْإِنْسَان } مراد به الجنس .

فهو في معنى الجمع ؛ فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر ، من المضغة ، مع استلزامه لما تقدمهُ ، ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام : أي : ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحيّ الناطق الذي يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ، يقدر أن يجعل من الْإِنْسَان الكامل مثل النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً ، وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقتها ، ليزيد المعنى تأكيداً ، كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد صرت قارئاً بإذن ربك الذي أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها . والذي أنشأ الْإِنْسَان خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الْإِنْسَان الكامل ، فهي أولى بسهولة الإيجاد ، ولما كانت القراءة من الملكات التي لا تكسبها النفس إلا بالتكرار ، والتعوّد على ما جرت به العادة في الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهي عن تكرار المقروء ، في تصييرها ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلهذا كرر الأمر بقوله : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ } وجملة { وَرَبُّكُ } إلخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجي منه الإعطاء ، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة من بحر كرمه . ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } أي : أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان . والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها في ذاتها الإفهام ؛ فالذي جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئاً مبيّناً وتالياً معلماً وأنت إنسان كامل ؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه ، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال : { عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } أي : أن الذي صدر أمرهُ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغهُ سواك ، هو الذي علم الْإِنْسَانْ جميع ما هو متمتع به من العلم ، وكان في بدء خلقه لا يعلم شيئاً ، فهل يستغرب من هذا المعلِّم الذي ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرة ، أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟ انتهى .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " في مباحث عجائب الْإِنْسَانْ وما خلقه من الحكم : ثم تأمل نعمة الله على الْإِنْسَانْ بالبيانين : البيان النطقي والبيان الخطي ، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمة على العبد ، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي ، ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الْإِنْسَانْ لأنه موضع العبرة . والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعداد النعم . وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة . وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها . أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين ، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة ؛ فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة ، ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده ؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف ، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم ، إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبهم ؛ فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع ، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ؛ فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجلِّ النعم ، والتعليم به – وإن كان مما يخلص إليه الْإِنْسَانْ بالفطنة والحيلة – فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه ، وفضل أعطاه الله إياه ، وزيادة في خلقه وفضله . فهو الذي علمه الكتابة ، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم ، فإنه علمه فتعلّم كما أنه علمه الكلام فتكلم ، هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به ، واللسان الذي يترجم به ، والبنان الذي يخطّ به ، ومن هيأ ذهنهُ لقبول هذا التعلم دون سائر الحيوانات ، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه ، ومن الذي دعم البنان بالكف ، ودعم الكف بالساعد ؛ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم ؛ فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ، ووضعته على القرطاس وهو جماد ، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر ، وجوابات المسائل . فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك ، ورسمها في ذهنك ، ثم أجرى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً ، معناهُ أعجب من صورته ، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك ، وترسلهُ إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة ، فيقوم مقامك ، ويترجم عنك ، ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسلهُ ، سوى من علم بالقلم عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ؟ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي ، فقد دل التعليم بالقلم أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب .

ودل قوله : { خَلَقَ } على أنه يعطي الوجود العيني . فدلت هذه الآيات – مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها – على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليماً . وذكر من صفاته ها هنا اسم { الْأَكْرَمُ } الذي هو فيه كل خير وكل كمال ، فله كل كمال وصفاً ، ومنه كل خير فعلاً . فهو { الْأَكْرَمُ } في ذاته وأوصافه وأفعاله ، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعتهُ إلى ذلك ، وهو الغني الحميد .

الثاني : قال الإمام : لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات . فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله ابداً .

الثالث : قال الرازي : في قوله : { بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ } إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفي قوله : { الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل على معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثاني إلى النبوّة . وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى *أن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى } [6 – 8]

{ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى *أن رَّآهُ اسْتَغْنَى } أي : حقاً أن الْإِنْسَان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنت . فـ { كَلَّا } بمعنى حقاً لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله – على ما تقدم في المأثور – أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الْإِنْسَان فإذا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قيل :

{ كَلَّا } يكون ردعاً للإنسان ، ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفء له ، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخي ، ومذهب أبي حيان أن كلا بمعنى ألا الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة إن بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفي " الكواشي " : يجوز في كلا أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعاً ، فيقف عليها .

تنبيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التموّل المحمود ، قررها الحكماء المصلحون ، وهو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الْإِنْسَأن ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط ، وإلا كان حرص التمول من أقبح الخصال :

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال ، أي : إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل .

والشرط الثاني : أن لا يكون في التمول تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات ، مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته . وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتؤويهم في حضن أجزائها .

الشرط الثالث : لجواز التمول هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا ؛ وذلك لقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية ؛ لأن الربا كسب بدون مقابل ماديّ ، ففيه معنى الغضب ، وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق ، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك . دع أن بالربا تربو الثروات ، فيختل التساوي بين الناس ، كما تقدم بيانه في أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى : { إِنَّ إِلَى رَبّكَ الرُّجْعَى } أي : المرجع في الآخرة . قال أبو السعود : تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطاغين . والالتفات للتشديد في التهديد ، و { الرُّجْعَى } مصدر بمعنى الرجوع . وتقديم الظرف لقصره عليه ، أي : أن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث ، لا إلى غيره ، استقلالاً ولا اشتراكاً ، فسترى حينئذ عاقبة طغيانك . وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه ، والتهديد والتحذير بحاله .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

القول في تأويل قوله تعالى :

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ أن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ أن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } [9 – 14]

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى } أي : يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهي إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك .

قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون في أن الناهي أبو جهل والعبد المصلي النبيُّ صلى الله عليه وسلم . كما روي في الصحيحين ، ولفظ البخاري عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : < لو فعله لأخذَته الملائكة > .

وفي الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر ، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضي منها العجب . ولفظ العبد وتنكيره ، لتفخيمه عليه السلام ، واستعظام النهي وتأكيد التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان في الكلام المنصف ، إذ قال : { يَنْهَى } ينهى ولم يقل : يؤذي ، و : { عَبْداً } دون : نبياً ، والرؤية هاهنا بصرية ، وفيما بعدها قلبية . معناه : أخبرني . فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها . قاله أبو السعود .

وقال الإمام : كلمة أرأيت صارت تستعمل في معنى أخبرني ، على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقيّ ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيحها . فكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو في حالة أدائها .

وقوله : { أَرَأَيْتَ أن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى } أي : أرأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده ، أي : ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه فالضمائر كلها لـ : { الَّذِي يَنْهَى } وجوز عود الضمير المستتر في { كَانَ } للعبد المصلي . وكذا في { أَمَرَ } أي : أرايت الذي ينهى عبداً يصلي ؟ والمنهيّ على الهدى آمر بالتقوى . والنهي مكذب متول ، فما أعجب من هذا ! وذهب الإمام رحمه الله ، في تأويل الآية إلى معنى آخر ، وعبارته :

أما قوله :

{ أَرَأَيْتَ أن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى } فمعناه أخبرني عن حاله إن كان ذلك الطاغي على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقوله : { أَرَأَيْتَ أن كَذَّبَ وَتَوَلَّى } أي : نبئني عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون ، وتولى أي : أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت في تفسير المعنى وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله : { أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى } أي : أجهِل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ، ثم إن ما يطيل به المفسرون في المفعول الثاني لفعل { أَرَأَيْتَ } الأولى ومفعوليها في الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؟ لأن القرآن قدوة في التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلاً بمعنى أخبرني . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَه * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [15 – 19]

{ كَلَّا } ردع عن النهي عن الصلاة { لَئِن لَّمْ يَنتَهِ } أي : عن هذا الطغيان ، وعن النهي عن الصلاة ، وعن التكذيب والتولي { لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ } أي : لنأخذن بناصيته, ولنسحبنه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا مَثَّلٌ في القهر والإذلال والتعذيب والنكال .

وقوله تعالى : { نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } بدل من الناصية ، ولم يقتصر على إحدى الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهي والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازي ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب .

وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله :

{ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ } [النحل : 62] ، و : وجهها يصف الجمال ، والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئيّ في قوله : بنو فلان قتلوا قتيلاً ، والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال في " البحر " : كتبت نون { لَنَسْفَعاً } بالألف باعتبار الموقف عليها بإبدالها ألفاً . وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيهاً لها بالتنوين ، وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف لأن قاعدة الرسم مبينة على حال الوقف والابتداء .

{ فَلْيَدْعُ نَادِيَه } أي : أهل مجلسه ، ليمنع المصلين ويؤذي أهل الحق الصادقين ، اتكالاً على قوتهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف ، أو على الإسناد المجازي من إطلاق اسم المحل على من حلّ فيه . والنادي المجلس الذي ينتدي فيه القوم ، أي : يجتمعون .

{ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ } أي : زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلكونه في الدنيا ، أو يردونه في النار في الآخرة وهو صاغر . ولم يرسم { سَنَدْعُ } بالواو في المصاحف باتباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله { فَلْيَدْعُ } وقيل : إنه مجزوم في جواب الأمر ، وفيه نظر .

{ كَلَّا } ردع للناهي بعد ردع ، وزجر إثر زجر { لَا تُطِعْهُ } أي : لا تطع ذاك الطاغي إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشري : أي : اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله { فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ } [القلم : 8] ، { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } أي : صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : < أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثروا من الدعاء > .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت في أبي جهل ، على ما صح في الأخبار ، قال الإمام : ولا مانع من أن يكون في الآيات إشارة إليه ، ولكنها عامة في كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .

الثاني : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : إنما شدد الأمر – أمر الوعيد – في حق أبي جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط ، حيث طرح سَلَى الجزور على ظهره صلى الله عليه وسلم وهو يصلي – لأنهما وإن اشتركا في مطلق الأذية حال صلاته لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبه بدعائه صلى الله عليه وسلم وعلى من شاركه في فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبي جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة في الصورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة ، فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال في " اللباب " : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعيّ . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال : < سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } و { إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ } > أخرجه مسلم في صحيحه .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } [1 – 5]

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } أي : أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقد وصفت بالمباركة في قوله تعالى :

{ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } [الدخان : 3] ، وكانت في رمضان ، لقوله تعالى : { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ } [البقرة : 185] .

قال الإمام : سميت ليلة القدر ، إما بمعنى ليلة التقدير ؛ لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دِينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ، أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم : فلان له قدر ، أي : له شرف وعظمة ؛ لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظّمه بالرسالة ، وقد جاء بما فيه الإشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جليلة ؛ بجلالة ما وقع فيها من إنزال القرآن . فقال : { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } أي : وما الذي يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها .

{ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ } فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدالّ على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال : إنها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهو يختبطون في ظلمات الضلال ؛ فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، في تحديد ما فضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى ؛ فهو الذي يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجري الكلام على عادتهم في التخاطب . وذلك في الكتاب كثير ، ومنه الاستفهام الواقع في هذه السور { وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ } فإنه جار على عادتهم في الخطاب ، وإلا فالعليم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالألف لا مفهوم له ، بل الغرض منه التكثير ، وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت : إخفاء الصدقة خير من إظهارها ، لم تعين درجة الأفضلية ، وهي درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب في واقعة واحدة ، هي واقعة بدر أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة ، أو بثلاثة آلاف ، أو بخمسة آلاف ، كما تراه في الأنفال وآل عمران ؛ فالعدد هناك لا مفهوم له ، كما هو ظاهر . فهي ليلة خير من الدهر إن شاء الله ، ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال : { تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا } يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة كان في تلك الليلة ، تنزلت من عالمها الروحانيّ الذي لا يحدهُ حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم ، والروح هو الذي يتمثل له مبلغاً للوحي ، وهو الذي سمّي في القرآن بجبريل . وإنما تظهر الملائكة والروح { بِإِذْنِ رَبِّهِمْ } أي : إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة ، بعد أن هيأها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الله لقبول تجليها . وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم ، فذلك فضل الله يختص به من يشاء . واختصاصه هو إذنه ومشيئته . ثم إن هذه الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام ؛ لأن الله يجلي الملائكة على النفوس ، لإيحاء ما يريده منها . ولهذا قال : { مِّن كُلِّ أَمْرٍ } أي : أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده ، فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى . والأمر ها هنا هو الأمر في قوله :

{ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ } [الدخان : 4 – 5] ، فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء سواها ؛ ولهذا قال بعضهم : إن من ها هنا بمعنى الباء ، أي : بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله :

{ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ } وقوله : { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضي لعظمته على نحو ما في قوله : { وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ } [البقرة : 214] ، فإن المضارع بعد الماضي يزيد الأمر تصويراً .

والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد ، فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى :

{ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } أي : أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلام نفسه – وهو الأمن والسلامة – للمبالغة في أنهُ لم يَشُبْها كدر ، بل فرَّج الله فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها الأيامَ والشهور الطوال .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التي ابتدأ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } ولا إجماع في تعيين تلك الليلة ، بل في صحيح البخاري : أنها < رفعت > . أي : رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : < نسيتها أو أنسيتها > ، من قوله صلوات الله عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في < العشر الأخير من رمضان > لما كان من اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله . وقد ذهب ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين ، قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة : أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها – صحابةً ومن بعدهم – حتى أنافت على أربعين قولاً .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه في شهر رمضان ، ولا نعيّنها من بين لياليه . فقد اختلف فيها الروايات اختلافاً عظيماً ، وكتاب الله لم يعينها ، وما ورد في الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ؛ شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضته فيهم ، في أثنائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات ، فمن رجح عنده خبر

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

في ليلة أحياها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه ؛ فهي ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء ، يتسابق إليها المنافقون ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون ، كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام ، فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه ، ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل إن أصغوا إليه فإنما يصغون لنغمة تاليه ، ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره ، ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال ، فضلاً عن الراشدين من الرجال . انتهى .

وقال الطبريّ : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ما لا يظهر في سائر السنة ؛ إذ لو كان ذلك حقاً ، لم يخف على كل من قام ليالي السنة ، فضلاً عن ليالي رمضان .

الثاني : حكى الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " قولاً عن بعض العلماء ، أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولعل مستنده ما صحّ أنها < رفعت > . وقد قدمنا معناه ؛ ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندي أن لا تنافي ؛ لأن المراد بالأول هو ليلة نزول القرآن وما كان فيها من التجليّ الخاص التي انفردت به ، وبالثاني أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هي ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ في قيام رمضان والتماسها في العشر الأواخر منه . أعني إحياء ما ماثلها من الليالي تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية ، فالقائم في ليالي العشر الأخير ، أو في رمضان ، مصادف البتة لما ماثل تلك الليلة ؛ لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام في تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسماً للعبادة ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخَر في تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافي حكمة ذكراها ؛ فتأمّل الفرق واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ؛ لاضطراب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذبِ الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العِزّة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة ، فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين ، لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه ، وإلا كنا من الذين { إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ } [الأنعام : 116] نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من غيب الله ويُعدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل ، فاحذر أن تقع فيها مثلهم ، انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

//

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ } [1 – 3]

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا } أي : جحدوا نبوة النبي صلوات الله عليه بعنادهم بعد ما تبينوا الحق منها { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } أي : اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم { وَالْمُشْرِكِينَ } أي : وثنيّ العرب { مُنفَكِّينَ } أي : عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عندما قلدوا فيه آباءهم ، ولا يعرفون من الحق شيئاً { حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ } أي : الحجة القاطعة المثبتة للمدعي ، وهي هنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فمجيئه هو الذي أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم ، بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يَصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع ؛ فإن ما هم فيه أجمل وأبدع ، ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التي تعرفهم وجه الحق هي : { رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ } أي : محمدٌ صلى الله عليه وسلم { يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } وهي صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معاً .

{ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ } أي : مستقيمة لا عوج فيها . واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل { لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت : 42] ، والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون هي ما صح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاه الله في كتابه عنهم ، فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوي سليم . وقد ترك حكاية ما لبّس في الملبّسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ؛ ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته– عليه السلام– من أهل الكتاب سبيلاً إلى إنكار الحق ، وإنما فضلوا عليه سواه أن هي سور القرآن ، فإن كل سورة من سوره كتاب قويم ؛ فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوي على سور من القرآن هي كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وقد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالُهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والحجة القاطعةُ على الحق الذي لا يختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم ، وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا ينحرفوا عنه ، فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب ، ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضللهم فيها مضلل ، لكن هذه البينة لم تفدهم شيئاً ، فإنهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب ، حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغياً منهم ، واستمراراً في المراد وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [4 – 5]

{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } أي : على ألسنة أنبيائهم . فهكذا كان شأنهم في النبي صلى الله عليه وسلم جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم بتفرقهم فيها وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها ، فإن كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبينتنا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق في الجهالة وأسلس قياداً للهوى منهم ؟ وقوله تعالى : { وَمَا أُمِرُوا } أي : والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم { إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } أي : الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء ، لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه { حُنَفَاء } أي : متبعي إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع حنيف بمعنى المائل المنحرف ؛ سمي به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الناس كافة { وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } أي : الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع ، لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة ؛ فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء البتة { وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ } أي : بصرفها في مصارفها التي عينها الله تعالى .

{ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } أي : الكتب القيمة ، أو دين الأمة القيمة المستقيمة . ومعنى الآية : أن أهل الكتاب قد افترقوا ، ولعنت كل فرقة أختها ، وكان افتراقهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة ، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم ، فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة ، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى ، وأن يخشعوا لله في صلاتهم ، وأن يصلوا عباد الله بزكاتهم . فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر ، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم ، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويَحُلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل . ومتى تحكم الإخلاص في الأنفس ، تسلط الإنصاف عليها ، فسادت فيها الوحدة ، ولم تطرق طرقها الفرقة ، هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب ، فما نقول في حالنا ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أفما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا ، في افتراقنا في الدِّين وأنْ صرنا فيه شيعاً ، وملأناه محدثات وبدعاً ؟ بهذا الذي تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به . وإن { مِنْ } في قوله { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } للتبعيض . وأن معنى لم يكونوا منفكين :

أي لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال في عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التي كانوا فيها ، حتى تأتيهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من { الَّذِينَ كَفَرُواْ } – والله أعلم – أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عندما جاءهم ولم ينظروا في دليله ، أو أعرضوا عنه بعدما عرفوا دليله ، سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب ، وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر منَّته على من آمن من هؤلاء ، فبيّن أن الذين كفروا – أي : جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي العرب – لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا ، حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم في إرساله رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذي قدمناه في معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى { حَتَّى } وبطل جميع ما يَهذي به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن الرأي السديد ، فصعّبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفاسته ، ولكونه أحسن ما فسرت به ، وقاعدتنا التي انتهجناها في هذا التفسير أن نؤثر في معاني آياته أحسن ما قيل فيها ؛ فلذلك سميناه محاسن التأويل ، هدانا الله إلى أقوم السبيل .

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } [6]

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ } أي : بالله ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فجحدوا نبوته { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ } أي : شر من برَأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق – بعد معرفته وقيام الدليل عليه – منكر في الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف :

الأولى : دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان المشركين ، لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين ، أعني من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب ، فأهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك ؛ لأنه دخيل لا أصيل ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولذلك ينفرون من وصمة الشرك ، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنين .

الثانية : قال ابن جرير : العرب لا تهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم ، فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها ، وذهب بها إلى قول الله { مِّن قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَا } وأنها فعيلة من ذلك ، وأما الذين لم يهمزوها ، فإن لتركهم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما : أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك ، وهو مفعل ، من ألك ، أو لأكَ ، ومن يزى ، و ترى و نرى ، وهو تفعل من رأيت . والآخر : أن يكونوا وجهوها إلى أنها فعلية ، من البراء وهو التراب . حكي عن العرب سماعاً فقيل : بفيك البراد ، يعني به التراب . انتهى .

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } [7 – 8]

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ } أي : بالله ورسوله محمد صلوات الله عليه { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } أي : من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق ، وبذل المال في أعمال البر ، مع القيام بفرائض العبادات ، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات ؛ لأن إذعانهم الصحيح ، ووجدانهم لذة معرفة الحق ، ملّكت الحق قيادهم فعملوا الأعمال الصالحة ، قاله الإمام { أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ } أي : أفضل الخليقة ، لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه ، قد حققوا لأنفسهم معنى الْإِنْسَانية التي شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح ، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الْإِنْسَانيّ ، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هُدوا إليه من الخير والسعادة ، فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام .

{ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } أي : بساتين إقامة ، لا ظعن فيها ، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً } أي : ماكثين على الدوام ، لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها { رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ } أي : بما أطاعوه في الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه ذلك { وَرَضُواْ عَنْهُ } لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا ، فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نِعَم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله في كل حال . أفاده الإمام .

{ ذَلِكَ } أي : هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء { لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } أي : خاف الله في الدنيا في سره وعلانيته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ؛ فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية .

قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم ، الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من الناس ، بل الخاصة كذلك ، وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء ، وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياح العجب والخيلاء ، وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء ، بل ولمن دون الأمراء ، خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء – كلا لا ينالون حسن الجزاء ؛ فإن خشية ربهم لم تحلّ قلوبهم ، ولهذا لم تهذب من نفوسهم ، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشي ربه ، وأشعر خوفه قلبه . والله أعلم .

//

سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا } [1 – 2]

{ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا } أي : أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب . فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص ، بمعنى الزلزال المخصوص بها ، وهي الرجة التي لا غاية وراءها . والأقرب الأول لآية :

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج : 1] ، وقرئ بفتح الزاي ، وقد قيل : هما مصدران . وقيل : المفتوح اسم والمكسور مصدر ، وهو المشهور .

{ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا } أي : قذفت ما في باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك . لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله :

{ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ } [الانشقاق : 3 – 4] ، والأثقال جمع ثقل ، بفتحتين وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً ؛ لأن الحمل يسمى ثقلاً كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا أَثْقَلَت } [الأعراف : 189] ، قاله الشريف المرتضى في " الدرر " .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [3 – 8]

{ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا } أي : قال مَن يكون مِن الْإِنْسَان شاهداً لهذا الزلزال الذي فاجأه ودهشه ولم يعهد مثله : ما لهذه الأرض رجّت الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة ؟ !

{ يَوْمَئِذٍ } بدل من إذا ، أي : في ذلك الوقت { تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا } أي : تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك ، وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أي : يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله ، فكأنها حدثت بذلك كقولك : الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة ، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدّث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

{ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } الباء سببية متعلق بـ { تُحَدِّثُ } أي : تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه ، وهو إحداث ما تدل به على خرابها .

وقال القاشانيّ : أي : أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال ، يعني الأمر التكوينيّ ، وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها .

{ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً } أي : ينصرفون عن مراقدهم إلى موطن حسابهم وجزائهم ، متفرقين سعداء وأشقياء { لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ } أي : ليريهم الله جزاء أعمالهم .

{ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ } أي : فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهي مثل في الصغر . وقيل : الذر هو الهباء الذي يرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة .

{ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } أي : ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول : دل لفظ { مَن } على شمول الجزاء بقسميه للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أي : ومن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره ، فإنه يراه ويجد جزاءه ، لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار ، وأنها لا تنفعهم ، معناها هو ما ذكرنا ، أي : أن عملاً من أعمالهم لا ينجيهم من عذاب الكفر ، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء ، كيف لا ، والله جل شأنه يقول :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء : 47] .

فقوله : { فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً } أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء ، وإن كلاً يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن < حاتماً يخفف عنه لكرمه > ، وأن < أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم > وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم . على أن كلمة الإجماع ، كثيراً ما يتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدِّين ، وحجَراً يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لا يعرفون للإجماع الذي يقوم به الحجة معنى ، فبئس ما يصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب في " حواشيه " على القاضي ، حيث ناقش صاحب" المقاصد" في دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به في الآية ؟ والذي يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبي طالب كعذاب أبي جهل ، ولا عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهي . انتهى .

الثاني : قال في " الإكليل " : في هاتين الآيتين الترغيب في قليل الخير وكثيره ، والتحذير من قليل الشر وكثيره أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية في القرآن . وفي لفظ : أجمع .

وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية < الجامعة الفاذة > ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : < ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة > :

{ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم < فقرأ عليه : { وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } > إلخ . قال : حسبي . لا أبالي أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائي في تفسيره .

//

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً } [1- 5]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً } إقسام بخيل الغُزاة التي تعدُو نحو العدوِ ، فتضبح ، و الضبح : صوت أنفاسِها إذا عدت . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها : اح اح ، كما قاله ابن عباس . ونصب { ضَبْحاً } إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية .

{ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً } أي : تورى النار بحوافرها . والقدح هو الضرب لإخراج النار ، والإيراء يترتب عليه ، لأنه إخراج النار وإيقادها ؛ فإيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة ، وتسمى نار الحباحب . ولما كان مرتباً على عدوْها عطفهُ بالفاء ، وكون المراد به الحرب بعيد . وفي إعرابه الوجوه السابقة .

{ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً } أي : تغير على العدوّ في وقته . يقال : أغار على العدوّ ، إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام : وهو وصف عرض للخيل من الغاية التي أجريت لها ، أي : أنها تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها ، لتهجم على عدوّ وقت الصباح ، وهو وقت المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة .

{ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً } أي : فأهجن بذلك الوقت غباراً من الإثارة ، وهي التهييج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع . والنقع : الغبار كما ذكرنا ، وورد بمعنى الصياح ، فجوّز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه ، وأوقع به . لا صياح المغير على المحارب ، وإن جاز على بُعد فيه ، أي : هيجن الصياح بالإغارة على العدوّ ، وضمير { بِهِ } للوقت والباء ظرفية . وفيه احتمالات أخر ككونه للعدو أو للإغارة ، لتأويلها بالجري . فالباء سببية أو للملابسة . ويجوز كونها ظرفية أيضاً . والضمير للمكان الدال عليه السياق ، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع . وهو الذي اختاره ابن جرير .

قال الشهاب : وذكر إثارة الغبار ، للإشارة إلى شدة العدو وكثرة الكرّ والفرّ . وتخصيص الصبح لأن الغارة كانت معتادة فيه ، أي : لمباغتة العدوّ . والغبار إنما يظهر نهاراً . و أثرن معطوف على ما قبله .

قال الناصر : وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم الذي هو العاديات أو ما بعدهُ ، لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل . وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل ، تصوير هذه الأفعال في النفس . فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف . وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة . وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي .

وقوله تعالى : { فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً } أي : فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ، ففرقته وشتته . يقال : وسطت القوم بالتخفيف ، و وسطته بالتشديد ، و توسطتهُ بمعنى واحد . وفي الضمير الوجوه المتقدمة .

قال الإمام رحمه الله : أقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التي ذكرها آتية بالأعمال التي سردها ؛ لينوه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ؛ ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها ؛ ليكون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

كل واحد منهم مستعداً في أي : وقت كان ، لأن يكون جزءاً من قوة الأمّة إذا اضطرت إلى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان في هذه الآيات القارعات ، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله :

{ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال : 60] ، وفيما ورد من الأحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل ، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس في عقائلها ، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس أعجب العجب أن ترى أمماً ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، إلى أن صار يشار إلى راكبها بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله :

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [6 – 8]

{ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } أي : كفور يكفر نعمه ولا يشكرها ، أي : لا يستعملها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه .

قال الهايميّ : أي : لكفور ، فيوجب قتله بهذه الخيول وقهره بهذاالغضب . وعن أبي أمامة : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده .

{ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ } أي : وإن الْإِنْسَأن على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

قال القاشاني : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لا يقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر في جنب الله بكفرانه .

{ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } أي : وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها لقويّ ، ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس ، وإنهُ لحب الخير الموصل إلى الحق شديد منقبض ، غير هش منبسط . أو اللام للتعليل ، أي : إنه لأجل حب المال بخيل ، فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنابه .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

القول في تأويل قوله تعالى :

{ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ } [9 – 11]

{ أَفَلَا يَعْلَمُ } أي : أبعدهذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، ولا يعلم بنور فطرته وقوة عقله { إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ } أي : بعث وأثير ما في القبور وإخراج موتاها .

{ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ } أي : أظهر وأبرز ما في صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر .

{ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ } أي : عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقديم الظرف ، إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته ، وهي إنما تكون يومئذ .

قال الرازيّ : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح ؛ ولذلك جعلها تعالى الأصل في الذم فقال : { آثِمٌ قَلْبُهُ } [البقرة : 283] والأصل في المدح فقال : { وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الأنفال : 2] .

//

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ } [1 – 5]

{ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ } قال أبو السعود : القرع هو الضرب بشدة واعتماد ، بحيث يحصل منه صوت شديد ، وهي القيامة . سميت بها لأنها تفزع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال ، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال : السماء بالانشقاق والانفطار ، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار ، والأرض بالزلزال والتبديل ، والجبال بالدك والنسف .

وهي مبتدأ خبره قوله تعالى : { مَا الْقَارِعَةُ } على أن ما الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس ؛ لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ . ولا ريب في أن مدار إفادة الهول والفخامة هاهنا هو كلمة ما ، لا القارعة أي : أي : شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وقوله تعالى : { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ } تأكيد لهولها وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق ، على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد ، حتى يدريك بها ، أي : وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ولما كان هذا منبأ عن الوعد الكريم بإعلامها ، أنجز ذلك بقوله تعالى : { يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ } أي : هي يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، والتطاير إلىالداعي ، كتطاير الفراش إلى النار . فـ { يَوْمَ } خبرمحذوف بني على الفتح لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب بإضمار اذكر ، كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها : اذكر يوم يكون الناس . { وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ } أي : كالصوف المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذي تبتدئ فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه قوله تعالى :

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ } [6 – 11]

{ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } قال ابن جرير : أي : فأما من ثقلت موازين حسناته ، يعني بالموازين الوزن . والعرب تقول : لك عندي درهم بميزان درهمك ، ويقولون : داري بميزان دارك ووزن دارك ، يراد حذاء دارك . قال الشاعر :

~قد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرَّة عندي لكلِّ مخاصم ميزانُهُ

يعني بقوله : ميزانه كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه فالموازين جمع ميزان . وجوز كونهُ جمع موزون ، وهو العمل الذي له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله :

{ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } أي : في عيشة قد رضيها في الجنة ، فـ { رَّاضِيَةٍ } بمعنى مرضية على التجوز في الكلمة نفسها أو في إسنادها ، أو استعارة مكنية وتخييلية .

{ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } أي : وزن حسناته .

{ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } أي : فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى أُمّاً على التشبيه تهكماً ؛ لأن أم الولد مأواه ومقره . وفي "التأويلات " : قيل المراد أم رأسه ، أي : يلقى في النار منكوساً على رأسه . انتهى .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والأول هو الموافق لقوله : { وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ } فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتهويل . أصل { مَا هِيَهْ }

ماهي ، كناية عن الهاوية فأدخل في آخرها هاء السكت وقفاً . وتحذف وصلاً ، وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

//

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } [1 - 8]

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } أي : شغلكم التباهي بالكثرة في المال والولد ونحوهما ، فيقول هذا : أنا أكثر منك مالاً ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً ، وهكذا مما يصرف عن الجد في العمل ، ويطفئ نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والكمالات المعنوية الباقية ، ذهب بكم التفاخر والتباهي بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كلَّ مذهب { حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ } أي : حتى هلكتم ومتم وصرتم من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم في الأعمال السيئة وما تنبهتم طول حياتكم إلى ما هو سبب سعادتكم ونجاتكم . وزيارة القبور عبارة عن الموت . روى الزمخشري شواهد لها : قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث ؛ لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره ، ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بعثوا وربِّ الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لا بد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة دهليز الآخرة .

{ كَلَّا } ردع عن الاشتغال بالتكاثر ، وتوهم أن الفوز بالتفاخر . فإن الفوز بالتناصر على الحق والتحلي بالفضائل { سَوْفَ تَعْلَمُونَ } أي : مغبة ما أنتم عليه في الاخرة من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال ، العظيمة الوبال ، لبقاء تبعاتها .

{ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ } تكرير للتأكيد ، و { ثُمَّ } للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول . أو الأول عند الموت ، والثاني عند النشور .

{ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ } أي : لو تعلمون ما بين أيديكم من الجزاء علم الأمر اليقين ، لكان ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز في التكاثر والذهول عن الحق به . واليقين بمعنى المتيقن ، صفة لمحذوف ، أو صفة للعلم ، على أنه من إضافة الصفة للموصوف

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

، وحذف جواب { لَوْ } يطلبهُ العقل من الشرط وما سبقه ، ليستحكم فيه فضل استحكام .

وقوله تعالى : { لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ } جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه تفخيماً .

{ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } أي : الرؤية التي هي نفس اليقين ، فالعين هنا بمعنى النفس ، كما في : جاء زيد عينه ، أي : نفسه . وإنما كانت نفس اليقين ، لأن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة ، فوق سائر الانكشافات ؛ فهو أحق بأن يكون عين اليقين . والتكرير للتأكيد .

قال الإمام : وكني برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها ، وهي كناية شائعة في الكتاب العزيز : { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } أي : عن النعيم الذي ألهاكم التكاثر به والتفاخر في الدنيا ماذا عملتم فيه ، ومن أين وصلتم إليه ، وفيم أصبتموه ، وماذا عملتم به ؟ ويدخل في ذلك ما أنعم عليهم من السمع والبصر وصحة البدن .

قال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار . قال : يسأل الله العباد فيم استعملوا وهوأعلم بذلك منهم . وهو قوله :

{ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 36] ، قال ابن جرير : لم يخصص في خبره تعالى نوعاً من النعيم دون نوع ، بل عمّ ؛ فهو سائلهم عن جميع النعيم ، ولذا قال مجاهد : أي : عن كل شيء من لذة الدنيا . وقال قتادة : إن الله عزوجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه .

//

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } [1 – 3]

{ وَالْعَصْرِ } أي : الدهر ، أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة . ولذا قيل له : أبو العجب . ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها . فينبّه الْإِنْسَانَ على أنه مستعد للخسران والسعادة . وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

~يَعيبون الزمان وليسَ فيه معيب غير أهلٍ للزمان

وجوّز أن يراد بالعصر الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا في شؤونهم ، وقد يكون في حديثهم مالا يليق أو ما يؤذي به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان في نفسه ليس مما يذم ويسب ، كما اعتاد الناس أن يقولوا : زمان مشؤوم ، و : وقت نحس ، و : دهر سوء ، وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات ، وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم في ذاته ، وإنما قد يُذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة !

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ } أي : خسران ، لخسارته رأس ماله الذي هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر, وإضاعة الباقي في الفاني .

{ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا } أي : بالله وبما أنزل من الحق ، إيماناً مُلك إرادتهم فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم ، كما قال : { وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ } قال القاشانيّ : أي : من الفضائل والخيرات ، أي : اكتسبوها فربحوا زيادة النور الكمالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس مالهم .

{ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ } أي : أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره ، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } أي : على ما يبلوا الله به عباده ، أو على الحق ، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذاك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم في "مفتاح دار السعادة " قال الشافعي رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه الصورة لكفتهم ، وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله :

إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به .

الثالثة : تعليمه من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا ، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة .

وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره . وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل . فهذه السورة –على اختصارها– هي من أجمع سورة القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه ، شافيا من كل داء ، هاديا إلى كل خير . انتهى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الثاني : قال الرازي : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتيا بهذه الأشياء الأربعة . وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ؛ فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور : منها الدعاء إلى الدين ، والنصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ثم كرر التواصي ليتضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثاني النهي عن المنكر . ومنه قوله تعالى : { وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ } [لقمان : 147] ، وقال عمر : رحم الله من أهدى إليّ عيوبي .

الثالث : قال الرازي : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ؛ فلذلك قرن التواصي بالصبر .

الرابع : تخصص التواصي بالحق والصبر ، من اندراجهما في الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر ، لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ، وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه ، بأن يدعو كلٌّ صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات التي لا قرار للنفوس عليها ولا دليل يهدي إليها ، ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام ، وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق في النظر ، لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كم ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل .

والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة في العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان في نيلها ما يخالف حقا أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصي غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التي هي أم الفضائل بأسرها ، ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متحليّاً بها ، وإلا دخلت في من يقول ولا يفعل كما يقول ؛ فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس : قال الإمام : إنما قال : { وَتَوَاصَوْا } ، ولم يقل : وأوصوا ؛ ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى أن يوصي به قومه ومن يهمه أمر الحق ، ليوصي صاحبه بطلبه يهمه أن يرى الحق فيقبله ، فكأن في هذه العبارة الجزلة قد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس : قال ابن كثير : ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبيد الله بن حصن ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الأخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك ، وهو خطأ ؛ وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صحابه بما ورد فيها ، خصوصا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره ، فعلى من أراد التوسع في أسرارها ، أن يرجع إليه .

//

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ *الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } [1 – 3]

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ } أي : لكل من يطعن في أعراض الناس ويغتابهم . أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن الحقيقيين ، ثم استعير لذلك ثم صار حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعجم :

~تُدْلى بِوُدِّ إذا لا قيتَني كِذباً وإن أُغَيَّبْ فأنت الهامِزُ اللُّمَزهْ

وبناء فُعَلَة يدل على أن ذلك عادة منهُ قد ضَريَ بها ، لأنه من صيغ المبالغة ، والآية عني بها من كان من المشركين بمكة ، همازاً لمازاً . كما في قوله تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ } [المطففين : 29 – 30] ، وقوله :

{ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ } [القلم : 11] الآيات ؛ فالسبب وإن يكن خاصاً ، إلا أن الوعيد عام يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عاماً ليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه .

{ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ } أي : أحصى عدده ولم ينفقه في وجوه البر .

قال الإمام : أي : أن الذي يحمله على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . أي : عده مرة بعد أخرى ، شغفاً به وتلذذاً بإحصائه ؛ لأنه لا يرى عزاً ولا شرفاً ولا مجداً في سواه ، فكلما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذي فضل ومزيه دونه ، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ، ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض ؛ لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المآل فهو { يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } أي : يظن أن ماله الذي جمعه وأحصاه وبخل بإنفاقه ، مخلدهُ في الدنيا ، فمزيل عنه الموت .

//

القول في تأويل قوله تعالى :

{ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ } [4 – 9]

{ كَلَّا } أي : فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن ، بل لابد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيىء الأعمال ، كما قال : { لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ } أي : ليلقين وليقذفن يوم القيامة في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ، أي : تكسرهُ . وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير .

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ } استفهام عنها لتهويل أمرها ، كأنها ليست من الأمور التي تدركها العقول .

{ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ } أي : هي النار التي لا تنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو مُنشئُها في عالم لا يعلمهُ سواهُ .

قال أبو السعود : وفي إضافتها إليه سبحانهُ ، ووصفها بالايقاد ، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه .

{ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ } قال ابن جرير : أي : التي يطلع ألمها ووهجها على القلوب ، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى ؛ حكي عن العرب سماعاً : متى طَلَعت أرضنا ، و : طلعتُ أرضي ، بلغتُ .

وقال الزمخشري : يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهي أوساط القلوب . ولا شيء في بدن الْإِنْسَان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منهُ بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ! ! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها موطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة ، أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها .

{ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ } أي : مغلقة مطبقة لا مخلص لهم منها .

{ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ } صفة لمؤصدة ، أو حال من الضمير المجرور ، وإلى الوجهين أشار الزمخشري بقوله : والمعنى أنه يؤكد يأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمد ، استيثاقاً في استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين في عمد ممدة ، مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

و المقاطر جمع مَقطرة ، بالفتح ، وهي جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم ، وتقطر ، أي : يجعل كلٌّ بجنب آخر ، و { عَمَدٍ } قرئ بضم العين والميم وفتحهما .

قال ابن جرير : وهما قراءتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء ، ولغتان صحيحتان ، والعرب تجمع العمود عُمُداً وعَمَداً ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل في جمع إهاب تجمعهُ أُهُباً وأهَباً .

تنبيه :

قال القاشاني في بيان آفات رذيلتي الهمز واللمز اللتين نزلت في وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أي : الكسر من أعراض الناس واللمز ، أي : الطعن فيهم ، رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر ؛ لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس ، وصاحبهما يريد أن يتفضل على الناس ، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرذيلة إليهم ليظهر فضله عليهم ، ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة ، فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفي قوله :

{ وَعَدَّدَهُ } إشارة أيضاً إلى الجهل ؛ لأن الذي جعل المال عدة للنوائب لا يعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب ؛ لاقتضاء حكمة الله تفريقه في النائبات ، فكيف يدفعها ؟ وكذا في قوله :

{ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } أي : لا يشعر أن المقتضيات المخلدة لصاحبها هي العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والذخائر الجسمانية الفانية ولكنهُ مخدوع بطول الأمل ، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذي هو رذيلة القوة الملكية ، أصل جميع الرذائل ، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها العذاب الأبديّ المستولي على القلب المبطل لجوهره .

//

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [1 – 5]

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } يعني الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم . كما سيأتي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها . والرؤية علمية ، أي : ألم تعلم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدة والعيان ، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه ، بأن يقال : ألم تر ما فعل ربك إلخ ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته وشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن ذلك من الإرهاصات ؛ لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سنأثره .

وقوله تعالى : { أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ } بيان إجمالي لما فعل بهم ، أي : ألم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة في تضييع وإبطال لما حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

قال الرازي : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية . إن قيل : لِششم سماهُ كيداً وأمرهُ كان ظاهراً ، فإنهُ كان يصرح أنهُ يهدم البيت ؟ قلنا : نعم ، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر ؛ لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته { وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ } أي : طوائف متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى ، و أبابيل جمع لا واحد له ، على ما حكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسي – وكان ثقة – أنه سمع واحدها إبالة ، بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهي حزمة الحطب ، استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائي عن بعض النحويين في مفردها أبول ، وعن آخرين : أبيل ، سماعاً كما أثره ابن جرير . والتنكير في { طَيْراً } إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم ، كأنه يقول : وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل ، أفاده الرازي .

{ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ } أي : من طين متحجر . وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعني بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير : وهذا القول الذي قاله ابن زيد لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لا تدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره .

{ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } قال ابن جرير : كزرع أكلته الدواب فراثته ، فيبس وتفرقت أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم ، وتفرق آراب أبدانهم بها ، بتفرق أجزاء الروث ، الذي حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهُجتنه ، فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار تشويه حالهم .

وقال أبو مسلم : العصف التين ، لقوله :

{ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ } [الرحمن : 12] ، لأنه تعصف به الريح عند الذرّ ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه في الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبهُ وبقي تبنه ، والتقدير كعصف مأكول

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الحب ، كما يقال فلان حسن الوجه ، فأجرى { مَّأْكُولٍ } على العصف من أجل أنه أكل حبه ؛ لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضاً أن معنى { مَّأْكُولٍ } مما يؤكل ، يعني تأكله الدواب ، يقال لكل ما يصلح للأكل وهو مأكول ، والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب في التفرق والتفتت والهلاك ، أشار له الرازي .

تنبيهات :

الأول : كان السبب الذي من أجله حلَّت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل, مسير أبرهة الحبشي بجنده مع الفيل على بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية ، حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ؛ فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك . وتفصيل نبئها ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي ، وكان ذا دين في النصرانية ، فبنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها ، ثم كتب للنجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها – أي : أحدث فيها – ثم خرج فلحق بأرضه . فأخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب غليه بمكة ، لما سمع قولك : أصرف إليها حج العرب ؛ غضب فجاء فقعد فيها ، أي : أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل . وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق – وكان أبرهة رجلاً حليماً – ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل ابن حبيب الخثعميّ في قبيلي خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً ، فأتى به ، فلما همَّ بقتله ، قال له نفيل : أيها الملك ! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلة خثعم : شهران وناهس ، بالسماع والطاعة . فخلى سبيله وخرج به معه يدله ، حتى إذا مرَّ بالطائف خرج له مسعد بن معتب الثقفي في رجاله ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد – يعنون اللات – إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم – واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة – فبعثوا معه أبا رغال يدلُّه على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس ، فلما

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أنزله به مات أبو رغال هنالك : فَرجمت قبره العرب – فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس – فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم .

فإن هو لم يرد حربي فأتني به ، فلما دخل حناطة مكة سأل من سيد قريش وشريفها ؟ فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ؛ هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام – أو كما قال – فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه ، فوالله ! ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فانطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر ، فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في محبسه . فقال له : يا ذا نفر ! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً ، ما عندي غناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ، إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة : يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ . قال عبد المطلب : إني أنا ربُّ الإبل وإن للبيت رباً سيمنعهُ . قال : وما كان ليمتنع مني ؟ قال : أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة – يعمر بن نفاثة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هزيل – فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم لا يهدم البيت ، فأبى عليهم . والله أعلم أكان ذلك أم لا .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعُف الجبال والشعاب ؛ تخوفاً عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

~لا هُمّ أن العبد يمـ نع رَحْلَهُ فامنع حلالكْ

~لا يغلبنّ صَليبُهُم ومحالهُمُ عَدْواً مِحالك

~إن كنت تاركهم وقبـ لتَنَا فأَمرٌ ما بد لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيَّأ فيله وعبَّى جيشه ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمين ، فلمَّا وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه ، فقال له : ابرُك ، أو : ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل : وخرج نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم ، فضربوا رأسه ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقّه فبزغوه بها – أي : أدموه – ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمين فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجههوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

~أين المفر والإله الطالبُ والأشرم المغلوبُ ليس الغالبْ

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل . وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنمُلةً أنملة ، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تَمُثُّ – أي : تسيل – قيحاً ودماً حتى ، قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ، ذلك العام .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يَعُدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تعالى :

{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ } السورة .

ثم قال ابن إسحاق : فلما ردّ الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله ؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم . فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فيها ما صنع الله بالحبشة ، وما ردّ عن قريش من كيدهم . ثم ساق القصائد في ذلك .

وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق ؛ لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ سبكاً ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغاء رجالها ، فرحمه الله ورضي عنه .

التنبيه الثاني : إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل واشتهرت به ؛ لاصطحابهم الفيل معهم للبطش والتخريب ، فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يدهم العاملة وسهمهم النافذ ؛ وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام ، فإذا غضبوا على محارب أسروه ، أو وزير أوثقوه ، أو بلد ونازلوا حصنه أرسلوا على دار المغضوب عليه أو حصنه الفيل ، فنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه ، وقواعد البنيان فيهدمها ؛ فيكون أمضى من معاول وفؤوس ، وأعظم رعباً ورهبة في النفوس ، وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه ، فأعمل فيه نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثَّل به تمثيلاً كان أشد بطشاً وتنكيلاً . وقد حدثني بغرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

الثالث : قال القاشانيّ : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي إحدى آيات الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه ، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الْإِنْسَانْ لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر . ومن اطلع على عالم القدرة ، وكشف له حجاب الحكمة ، عرف لمية أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبورها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماوردي في " أعلام النبوة " : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات قاهرة ، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس بها كذب بصدق ، ولا منتحل بمحق ، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها . ولما دنا مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته ، فكان من أعظمها شأناً ، وأظهرها برهاناً ، وأشهرها عياناً وبياناً أصحاب الفيل ، أنقذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه على مكة لقتل رجالها وسبي ذراريها وهدم الكعبة .

وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملاً في بطن أمه بمكة ؛ لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل ، فكانت آيته في ذلك من وجهين :

أحدهما : أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا ؛ فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملاً ووليداً . والثاني : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو مانع من الرجعة ، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فإن قيل : فكيف منع عن الكعبة قبله مصيرها قبلة ومنسكاً ، ولم يمنع الحَجَّاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قيل : فعل الحَجاج كان بعد استقرار الدِّين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس البنوة ومجيء الرسالة ، على أن الرسول < قد أنذر بهدمها > فصار الهدم آيةً بعد أن كان المنع آية ، فلذلك اختلف حكمها في الحالين ، والله تعالى اعلم .

ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمته في النفوس ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيماً ، فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لكل باغ ودافعاً لكل طاغ . وقد عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبابيل ، منهم حكيم بن حزام ، وحاطب بن عبد العزى ، ونوفل بن معاوية ؛ لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة : منها ستين سنة في الجاهلية ، وستين سنة في الإسلام ، انتهى .

الخامس : ورد في كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل : روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أظل يوم الحديبية على الثنية التي نهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء – أي : حرنت – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل > ، قال ابن الأثير في " النهاية " : هو فيل أبرهة الحبشي الذي جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، وردَّ رأسه راجعاً من حيث جاء . يعني أن الله حبس ناقة النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الحديبية ، فلم تتقدم ولم تدخل الحرم ؛ لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : < إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب > .

//

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [1 – 4]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ } قال ابن هشام : إيلاف قريش إلفُهم الخروجَ إلى الشام في تجارتهم . وكانت لهم خرجَتان : خرْجة في الشتاء وخرجة في الصيف . قال : أخبرني أبو زيد الأنصاري أن العرب تقول : ألفت الشيء إلفاً ، وآلفته إيلافاً ، في معنى واحد ، وأنشدني لذي الرمة :

~من المُؤْلفات الرمْل إدماءُ حرةٌ شُعاعُ الضُّحى في لونها يتَوَضَّحُ

والإيلاف أيضاً أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك ، ويقال : آلف فلان إيلافاً ، قال الكميت بن زيد :

~بِعَامٍ يقول له المُؤْلِفُو ن هذا المُعيمُ لنا المُرْجِلُ

والمعيم العام الذي قل فيه اللبن . والإيلاف أيضاً أن يصير القوم ألفاً يقال : آلف القوم إيلافاً . قال الكميت :

~وآل مُزَيْقيَاءَ غداةَ لاقَوْا بني سعد بن ضَبَّةَ مُؤْلِفينا

والإيلاف أيضاً أن يُؤلف الشيء فيألفه ويلزمه ، يقال : آلفته إياهُ إيلافاً . والإيلاف أيضاً أن تصيّر ما دون الألف ألفاً ، يقال : آلفته إيلافاً . انتهى . ولورود الإيلاف بهذه المعاني ، ظهر سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه ، مع ما في الإبهام ، ثم التفسير من التفخيم والتقرير . روى ابن جرير عن عكرمة قال : كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن ، يختلفون إلى هذه في الشتاء وإلى تلك في الصيف . وعن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان : الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن في التجارة ، إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد . وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن .

وعن ابن عباس قال : كانوا يُشتون بمكة ويصيّفون بالطائف . والأكثرون على الأول . واللام في قول { لِإِيلَافِ } متعلق بقوله : { فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ } أي : فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين . ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط ؛ إذ المعنى : أن نِعم الله تعالى عليهم غير محصورة ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . والبيت هو الكعبة المشرفة { وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } أي : مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التي كانت العرب يخاف بعضها بعضاً ؛ فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ } [القصص : 57] ، ونظيره أيضاً قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ } [العنكبوت : 67] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام في { لِإِيلَافِ } متعلق بما قبله ، أي : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هذا لا بد من تأويله ، والمعنى : أهلكهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه ، أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن في الإقامة والسفر . أو هي لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف ؛ ولذا قال ابن جرير في رده : وأما القول الذي قاله من حكينا قوله أنه

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

من صلة قوله :

{ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون { لِإِيلَافِ } بعض { أَلَمْ تَرَ } ، وأن لا تكون سورة منفصلة من { أَلَمْ تَرَ } ؛ وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك . ولو كان قوله : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ } من صلة قوله : { فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } لم تكن { أَلَمْ تَرَ } تامة حتى توصل بقوله : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ } لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر . انتهى .

//

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ *الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } [1 – 7]

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ } أي : بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه في أمره ونهيه ، قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم .

والفاء في قوله تعالى : { فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ } جواب شرط محذوف ، على أن ذلك مبتدأ والموصول خبره ، والمعنى : هل عرفت الذي يكذب بالجزاء أو بالإسلام ، أن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً ويزجره زجراً قبيحاً . يقال : دفعت فلاناً عن حقه : دفعت عنه وظلمته .

{ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } أي : لا يحث غيره من ذوي اليسار على إطعام المحتاج وسدّ خلته ، بل يبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام – كما قاله الراغب – فهو ظاهر ، وإلا ففيه مضاف مقدر ، أي : بذل طعام المسكين . واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله :

{ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّ لسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ } [المعارج : 24 – 25] ، فهو بيان لشدة الاستحقاق . وفيه إشارة للنهي عن الامتنان .

قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما يذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

قال الزمخشري : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشي الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين .

وقوله تعالى : { فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ *الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } قال ابن جرير : أي : لاهُون يتغافلون عنها وذلك باللهو عنها والتشاغل بغيرها ، وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى . وقال القاشانيّ : أي : فويل لهم ، أي : للموصوفين بهذه الصفات ، من دعِّ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين الذي إن صلَّوا غفلوا عن صلاتهم لاحتجابهم عن حقيقتها بجهلهم وعدم حضورهم . و المصلين من باب وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ما هي به معتبرة من الحضور والإخلاص ، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذي يكذب هو الجنس .

{ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ } أي : يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب ، ولا رهبة من عقاب ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم فيكفوا عنهم . وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك ، أريد به العمل عند الناس ليثنوا عليهم ، أوضحه الشهاب .

{ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ } أي : ما يعان به الخلق ويصرف في معونتهم من الأموال والأمتعة وكل ما ينتفع به ، لكون الجهل حاكماً عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوحيدي وعدم اعتقادهم بالجزاء ؛ فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفاني ، ولا عدالة في أنفسهم للاتصاف بالرذائل والبعد عن الفضائل ، فلا يعاونون أحداً فلن يفلحوا أبداً ، قاله القاشاني .

تنبيه :

المعني بهذه الآيات أولاً وبالذات المنافقون في عهد النبوة ، ويدخل فيها ثانياً وبالعرض كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتباراً بالعموم ؛ فالسورة مدنية ونظيرها في المنافقين قوله تعالى : { وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً } [النساء : 142] ، ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير : هم المنافقون كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهو الماعون .

//

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } [1 – 3]

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } أي : الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحقّ والهدى وما فيه من سعادة الدارين . روى ابن جرير عن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذي آتاه الله إياه ، فقلت لسعيد : إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة ؟ فقال : هو من الخير الذي أعطاه الله إياه .

{ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } قال الإمام : أي : فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك مما هو نُسك لك لله وحده ، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام : 162 – 163] { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } قال ابن جرير : أي : مبغضك يا محمد ، وعدوك هو الأبتر ، يعني الأقل الأذل المنقطع دابره الذي لا عقب له .

روى ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له . فإذا هلك انقطع ذكره ؛ فأنزل الله هذه السورة . وعن عطاء قال : نزلت في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بُتِر محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك السورةَ . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . قال ابن كثير : والآية تعم جميع من اتصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم يموتون ، يقولون : بتر محمد ، أي : لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ، ويعدون ذلك عيباً يلمزونه به وينفرون به الناس من أتباعه ، وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويعدّون ذلك مغمزاً في الدين ، ويأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل . وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنّون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين ، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلوّ أيديهم من المال . وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين ، تمُرُ بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق ؛ فأراد الله سبحانه أن يمحص من نفوس هؤلاء ، ويبكّت الآخرين ، ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز وأن متبعه هو الظافر ، وإن عدوه هو الخائب الأبتر الذي يُمحى ذِكره ويعفى أثره .

تنبيه :

لما روي من سبب نزول هذه السورة مما رويناه ، ذهب إمام اللغة ابن جنّي إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة ، وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جنّي في " شرح ديوان المتنبي " في قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوّي :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

~وأبهرُ آيات التهامي أنهُ أبوك وأجْدَى ما لكم من مَناقبِ

وفي جملة ما أملاه عليّ أبو الفضل العروضي : أن قريشاً وأعداء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : إن محمداً أبتر لا عقب له ، فإذا مات استرحنا منه ؛ فأنزل الله تعالى :

{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } أي : العدد الكثير ، ولست الأبتر الذي قالوه . ومراده بالعدد الكثير الذرية وهو أولاد فاطمة . قال العروضي : فإن قيل : الْإِنْسَأن بالأبناء والآباء والأمهات . قلنا : هذا خلاف حكم الله تعالى فإنه قد قال :

{ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ } إلى قوله { وَيَحْيَى وَعِيسَى } [الأنعام : 84] ، فجعل عيسى من أولاد إبراهيم ومن ذريته ، ولا خلاف في أنه لم يكن لعيسى أب . انتهى .

وقد بسطنا أدلة انتساب الأسباط إلى أجدادهم في كتاب " شرف الأسباط " بما لا مزيد عليه ، فراجعه .

//

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [1 – 6]

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } أي : المشركون الجاحدون للحق ، الذي وضحت حجتهُ واتضحت محجتهُ .

{ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } أي : من الآلهة والأوثان الآن .

{ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } أي : الآن .

{ وَلَا أَنَا عَابِدٌ } أي : فيما أستقبل { مَّا عَبَدتُّمْ } أي : فيما مضى .

{ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ } أي : فيما تستقبلون أبداً { مَا أَعْبُدُ } أي : فيما أستقبل { مَّا عَبَدتُّمْ } أي : الآن وفيما أستقبل ، هكذا فسره الإمام ابن جرير رحمه الله ، ثم قال : وإنما قيل ذلك كذلك ، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشخاص بأعيانهم من المشركين ، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً ، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه ، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدَّثوا به أنفسهم . وإن ذلك الغير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات . وآيس نبي الله صلى الله عليه وسلم مع الطمع في إيمانهم ، ومن أن يفلحوا أبداً ، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا ، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف ، وهلك بعضٌ قبل ذلك كافراً . ثم روى رحمه الله عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا قال : لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

وأمية بن خلف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ! هلم ، فلنعبد ما تعبد وتعبدَ ما نعبد ، ونشركك في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا ، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا واخذ منه بحظك ؛ فأنزل الله { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } السورة ، وفي رواية : وأنزل الله في ذلك هذه السورة ، وقوله : { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } { بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ } [الزمر : 64 – 66] ، انتهى .

وقيل : الجملتان الأخيرتان لنفي العبادة حالاً كما أن الأوليين لنفسها استقبالاً ، قال أبو السعود : وإنما لم يقل : ما عبدتُ ؛ ليوافق ما عَبَدتُّم ؛ لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى . وإيثار ما في { مَا أَعْبُدُ } على من ؛ لأن المراد هو الوصف ، كأنه قيل :

{ مَا أَعْبُدُ } من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته . وقيل : أن { مَا } مصدرية ، أي : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي . وقيل : الأوليان بمعنى الذي ، والأخريان مصدريتان .

وقيل : قوله تعالى : { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } تأكيد لقوله تعالى : { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } وقوله تعالى { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } ثانياً تأكيداً لمثله المذكور أولاً . انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية أن المراد بقوله : { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } نفي الفعل ، لأنها جملة فعلية { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } نفي قبوله لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً ، وهو قول حسن .

واختار الإمام كون { مَّا } في الأوليين موصولة وفيما بعدها مصدرية ، قال : فمفاد الجملتين الأوليين الاختلاف التام في المعبود ، ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة ، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة ؛ لأن معبودي ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع ، المتعالي عن الظهور في شخص معين ، الباسط فضلَه لكل من أخلص له ، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه ، والذي تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتي مخلصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ؛ فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هي من عبادتي ؟ وقوله تعالى : { لَكُمْ دِينَكُمْ } تقرير لقوله تعالى : { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } وقوله تعالى : { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ } كما أن قوله تعالى : { وَلِيَ دِينِ } تقرير لقوله تعالى : { وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } والمعنى أن دينكم الذي هو الإشراك مقصورٌ على الحصول لكم ، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضاً ، كما تطمعون فيه ؛ فإن ذلك من المحالات ، وأن ديني الذي هو التوحيد ، مقصور على الحصول لي ، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدل الإمام الشافعيّ وغيره بهذه الآية الكريمة { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } على أن الكفر كلُّه ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الأديان – ما عدا الإسلام – كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود ، وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم < لا يتوارث أهل ملتين شتَّى > .

//

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } [1 – 3]

{ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ } أي : لدينه الحق على الباطل { وَالْفَتْحُ } أي : فتح مكة الذي فتح الله بينه وبين قومه صلوات الله عليه ، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم في التمسك بعقائدهم الباطلة .

{ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً } أي : ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون في دين الله ، وهو دينك الذي جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحاداً ، كما كان في بدء الأمر أيام الشدة ؛ إذ حصل ذلك كله وهو لا ريب حاصل .

{ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ } أي : فنزِّه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله ، وعن أن يخلف وعده في تأييده ، وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم الذي إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المفسدين ، والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين { وَاسْتَغْفِرْهُ } أي : اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن ، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد ، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال ؛ فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمّل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم

{ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً } أي : إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربي النفوس بالمحن ، فإذا وجدتْ الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدد همها بحسن الوعد ، ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال ، وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها ، وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الرحيم . وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روي عنه : < إنه قد نعيت إليه نفسه > . هذا ملخص ما أورده الإمام في تفسيره .

تنبيهات :

الأول : قال ابن كثير : المراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ؛ فإن أحياء العرب كانت تتلوّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبيّ . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهِر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخاري في" صحيحه" عن عمرو بن سلمة : كنا بماءٍ ممرَّ الناس ، وكان يمرُ بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله تعالى أرسله أوحى إليه ، أو أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يُغزى في صدري . وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم . . . . الحديث .

الثاني : قال الرازي : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس في وقت النزول هذه السورة قولان : أحدهما : أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه < عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً > ؛ ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما : أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصره على أهل مكة وأن يفتحها عليه . ونظيره { إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ } [القصص : 85] ، وقوله : { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } يقتضي الاستقبال ؛ إذ لا يقال فيما وقع : { إِذَا جَاء } و : إذا وقع ، وإذا صح القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات ؛ من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ؛ والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : ولأبي يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق ، في حجة الوداع < فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع > .

ثم قال : وسئلت عن قول" الكشاف" : أن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام التشريق ، فكيف صدرت بـ : إذا الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف ما نقله . وعلى تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح ؛ لأن مجيء الناس أفواجاً لم يكن كمل ، فبقية الشرط مستقبل .

وقد أورد الطيبي السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدهما : أن إذا قد ترد بمعنى إذ كما في قوله تعالى : { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً } [الجمعة : 11] الآية .

ثانيهما : أن كلام الله قديم . وفي كل من الجوابين نظر لا يخفى . انتهى كلامه .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الثالث : قال الشهاب : المراد بالناس العرب . فـ أل عهدية . أو المراد الاستغراق العرفيّ والمراد عبدة الأصنام منهم ؛ لأن نصارى تغلب لم يسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع : روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن نزلت عليه : { إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } إلا يقول فيها : < سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي > .

وفيه عنها أيضاً : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : < سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي > ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى يتأول القرآن ، يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، في أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم في " الهدى " كأنه أخذه من قوله تعالى : { وَاسْتَغْفِرْهُ } لأنه كان يجعل الاستغفار في خواتم الأمور ؛ فيقول إذا سلم من الصلاة : < أستغفر الله > ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : < غفرانك > . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك : { ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ } [البقرة : 199] الآية .

//

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } [1 – 5]

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } أي : خسرت يداه ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من اللزوم في الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة { وَتُبْ } مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسرانه في نفسه وذاته ؛ لأن سعي المرء لإصلاح نفسه وعمله . فأخبر بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعني هلاك عمله وهلاك نفسه .

وقال ابن جرير : كان بعض أهل العربية يقول قوله : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ } دعاء عليه من الله .

وأما قوله : { وَتُبْ } فإنه خبر ، أي : عما سيحقق له في الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضي لتحققه .

وأبو لهب أحد عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزى ، وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولد له يقال : له لهب ؛ أو لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن مآله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

إلى نار ذات لهب ، فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

قال الرواة : كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقصاً له ولدعوته ، ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها ، بل أرسل عنه بديلاً ، فلما بلغه ما جرى لقريش مات غماً ؛ وقد روى الشيخان عن ابن عباس قال : لما نزلت { وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء : 214] ، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى : < يا بني فهر ! يا بني عديّ ! > – لبطون من قريش – حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً ؛ لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : < أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ > ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : < فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد > . فقال أبو لهب : تباً لك سائرَ اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت السورة .

وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديلي قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : < يا أيها الناس ! قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا > . والناس مجتمعون عليه . ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . وفي رواية له : يتبعه من خلفه يقول : يا بني فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة . فلا تسمعوا له ولا تتبعوه .

{ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ } أي : أي : شيء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه . فكسبه هو عمله الذي يظن أنه منه على شيء . وقيل : ولده ؛ لقرن الأولاد بالأموال في كثير من الآيات ، وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال ، فنفى إغناءهما عنه حين حلَّ به التباب .

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : متعب وعتبة وهما أسلما ، وعتيبة – مصغراً – وهذا هو الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لما جاهر بإيذائه وعداوته ، ورد ابنته وطلقها ؛ وقال صلوات الله عليه وسلامه : < اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك > . فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان رضي الله عنه :

~من يرجعُ العامَ إلى أهلِهِ فما أُكِيلُ السَّبْعِ بالراجِعِ

ثم قال : ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبي : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراده .

{ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ } أي : توقّد واشتعال ، وهي نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاهدته .

{ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ } أي : وسيصلاها معه امرأته أيضاً : فـ { امْرَأَتَهُ } مرفوع عطفاً على الضمير في { سَيَصْلَى } أو على الابتداء ، و

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ فِي جِيدِهَا } الخبر . وقرئ : حَمَّالَةَ بالنصب على الشتم والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلاً أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام وتمشي بالنميمة ، كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشري : ويقال للمشّاء بالنمائم المفسد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أي : يوقد بينهم ويورث الشر ، قال :

~البيض لم تُصْطَدْ على ظهر لأُمة ولَمْ تَمْشِ بين الحيّ بالحطَبِ الرَّطْبِ

يمدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تصطاد على سوء ولؤم فيها ، ومن أن تمشي بالسعاية والنميمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

قال الشهاب : وهي استعارة مشهورة لطيفة ، كاستعارة حطب جهنم للأوزار .

قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

{ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ } قال الإمام رحمه الله : أي : في عنقها حبل من الليف ، أي : أنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذي في عنقه حبل خشن ، يشدّ به ما حمله إلى عنقه ، حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفي عنقها حبل من الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تختنق به .

وقال أيضاً : قد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة ، ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيّه ؛ مطاوعة لهواه وإيثاراً لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ، واغتراراً بما عنده من الأموال ، وبما له من الصولة أو من المنزلة في قلوب الرجال ، وأنه لا تغني عنه أمواله ولا أعماله شيئاً ، وسيصلى ما يصلى . نسأل الله العافية .

//

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } [1 – 4]

{ قُلْ هُوَ } أي : الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبّر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الإيذانُ بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير { اللهُ أَحَدٌ } أي : واحد في الألوهية والربوبية .

قال الزمخشري : { أَحَدٌ } بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : الأحد في أسمائه تعالى الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله : وحد ؛ لأنه من الوحدة .

وفي " المصباح " : يكون أحد مرادفاً لواحد في موضعين سماعاً : أحدهما : وصف اسم البارئ تعالى ، فقال : هو الواحد وهو الأحد ؛ لاختصاصه بالأحدية ، فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا يُنعت به غير الله تعالى ؛ فلا يقال : رجل أحد ، ولا : درهم أحد ، ونحو ذلك .

والموضع الثاني : أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال ، فيقال : أحد وعشرون ، وواحد وعشرون . وفي غير هذين يقع الفرق بينهما في الاستعمال ، بأن الأحد لنفي ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلا في الجحد ، لما فيه العموم ، نحو : ما قام أحد . أو مضافاً نحو : ما قام أحد الثلاثة . و الواحد اسم لمفتتح العدد ، ويستعمل في الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال : جاءني واحد من القوم . انتهى .

وقال الأزهري : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثاني له ، ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما { أَحَدٌ } فلا ينعت به غير الله تعالى ؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

قال الإمام : ونكّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه . فإن الوحدة تكون لكل واحد ، تقول : لا أحد في الدار ، بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته ، فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، وما يعتقده القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتي لابن تيمية كلام آخر في سر إيثاره بالتنكير .

//

{ اللَّهُ الصَّمَدُ } أي : الذي يُصمَد إليه في الحوائج ، ويُقصد إليه في الرغائب . إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزاليّ في " المقصد الأسنى " . وهكذا قال ابن جرير : الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها . ومنه قول الشاعر :

~ألا بَكَرَ النَّاعي بخَيْرَيْ أَسَدْ بعَمْرِو بن مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الشهاب : فهو فَعَل بمعنى مفعول ، وصمد بمعنى قصد . فيتعدى بنفسه وباللام وإلى .

وقال ابن تيمية رحمه الله : وفي الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك ، بل كلها صواب والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والثاني : أنه السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :

وإنما أدخل اللام في { الصَّمَدُ } ولم يدخلها في { أَحَدٌ } لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف ، ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق ، وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل : صمد ، بل قال : { اللَّهُ الصَّمَدُ } فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ؛ فإنه المستوجب لغايته

على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضاً محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كلُّ شيء ولا يصمد هو على شيء إلا الله ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه .

//

وقال أبو السعود : وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية . وتعرية الجملة على العاطف لأنها كالنتيجة للأولى ، بيَّن أولاً ألوهيته عزَّ وجلّ المستتبعة لكافة نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ، ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتيّ عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ؛ تحقيقاً للحق وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح ، ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه : { لَمْ يَلِدْ } نصيباً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح ؛ ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي ، أي : لم يصدر عنه ولد ؛ لأنه لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ، كما نطق به قوله تعالى :

{ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ } [الأنعام : 101] ، ولا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه ؛ لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية : وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة كلَّ أفرادها ، سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض ؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوسَ بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة ، وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى :

{ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام : 100] ، وقال تعالى : { أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الصافات : 151 – 152] ، وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى : { وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ } [النحل : 57] ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله :

{ وَلَمْ يُولَدْ } نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله { وَلَمْ يُولَدْ } يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابناً لله يكون إلهاً ، ويُعبد عبادة الإله ، ويُقصد فيه الإله ، بل لا يَستحي الغالون منهم أن يعبّروا عن والدته بأم الإله القادرة ؛ فإن المولود حادث ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزلي مع أبيه ، مما لا يمكن تعقلهُ ؛ فهو سبحانه منزَّه عن ذلك .

//

{ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } أي : ولم يكن أحد يكافئه أي : يماثله من صاحبة أو غيرها . وقال الإمام : الكفؤ معناه المكافئ والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً . فقد نفى بهذه السورة جميع أنواع الشرك ، وقرَّر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير : الكفؤ والكفئ والكفاء في كلام العرب واحد ، وهو المثل والشبه .

وقرئ : { كُفُواً } بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهمزها ، وهما قراءتان معروفتان ، ولغتان مشهورتان . و { لَّهُ } صلة لـ : { كُفُواً } قدمت عليه ، مع أن حقها التأخر عنه ؛ للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل .

فوائد من هذه السورة :

الأولى : قال الشهاب : فإن قلت المأمور : { قُلْ } من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالمقول وحده ، فلِم كانت { قُلْ } من المتلوّ فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : المأمور به سواء كان معيناً أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول ، فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على مرّ الدهور .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الثانية : قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى :

{ اللَّهُ الصَّمَدُ } من أهل الكلام المحدث من يقول : الرب– تعالى– جسم . كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما ، قالوا : هو صمد ، والصمد الذي لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة ؛ ولهذا قيل في تفسيره : إنه الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم .

وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع ، ومنه تصميد المال . وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع . وأما النفاة فقالوا : الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام ، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام .

وقالوا أيضاً : الأحد الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم : هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد ، والصمد الغني عمن سواه ، فالمركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازي : قد استدل القوم من جهَّال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً . فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغظة ، وتعالى الله عن ذلك . فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه ؛ وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير ، وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول : التصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولاً ، وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثاني ولا لوازمه .

الثالثة : قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب أن تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له ، وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله ، وهذه السورة دلت على النوعين ، فقوله :

{ أَحَدٌ } من قوله :

{ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله : صمد يتضمن جميع صفات الكمال ، فالنقائص جنسُها منفيٌّ عن الله تعالى ، وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب ، ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك ، فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه ، بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، فكلاهما مخلوق .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمَّى الله نفسَه عليماً حليماً رؤوفاً رحيماً سميعاً بصيراً عزيزاً ملِكاً جباراً متكبراً ، وسمَّى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء ، مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جلَّ جلاله في شيء من الأشياء .

الرابعة : قدمنا ما ورد في الحديث من أن < سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن > .

وقد ذكروا في ذلك وجوها ، منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام : ثلث منها للأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات . وقال الغزالي في " جواهر القرآن" : مهمات القرآن هي معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم ، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة ، والباقي توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله ، وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع . وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفؤ .

قال : والوصف بالصمد يشعِر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه . نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم ، فلذلك تعدل ثلث القرآن ، أي : ثلث الأصول من القرآن كما قال : < الحج عرفة > أي : هو الأصل والباقي تبعٌ .

وقال ابن القيم في " زاد المعاد " : < كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص والكافرون > وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد ؛ فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشرِكة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميعَ صفات الكمال الذي لا يلحقه نقصٌ بوجه من الوجوه ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته ، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي الشبيه والمثيل والنظير ، فتضمنت هذه السورة إثبات كلَّ كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه ، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن ، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء ، والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهي ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه ؛ فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن ، وخلَّصت قارئها المؤمن من الشرك العلمي ، كما خلّصت سورة { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } من الشرك العملي الإرادي القصدي . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزِلُه منازله ، كانت سورة { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغَ التواتر ، و { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } تعدل ربع القرآن ، وفي الترمذي : من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يرفعه :

< { إِذَا زُلْزِلَتِ } تعدل نصف القرآن و { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } تعدل ثلث القرآن و { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

} تعدل ربع القرآن > رواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لِما لها فيه من نيل الأغراض ، وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته ؛ لأن هذا يزول بالعلم والحجة ، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطن الشهوة والغضب على نفسه ؛ فجاء من التأكيد والتكرار في سورة : { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } المتضمنة لإزالت الشرك العملي ما يجيء مثله في سورة : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }

ولمّا كان القرآن شطرين : شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها ، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها ، وكانت سورة { إِذَا زُلْزِلَتِ } قد أخلصت من أولها وأخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر إلا الآخرة ، وما يكون من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن فأحْرِ بهذا الحديث أن يكون صحيحاً . والله أعلم .

الخامسة : قال ابن تيمية : سورة { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } أكثرهم على أنها مكية ، وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة ، ولا منافاة ؛ فإن الله أنزلها بمكة أولا ، ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى ، وهذا مما ذكر طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك ؛ فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقّاً ، والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب ، وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم في مقدمة هذا التفسير ومواضع أُخَر منه تحقيق البحث في معنى النزول بما يدفع المنافاة في أمثال هذا ، فراجعه .

ولهذه السورة الشريفة تفاسير على حدة ، من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما في تفسيرها ، والثاني في سر كونها تعدل ثلث القرآن ، فاحتفظ بهما . والله الهادي .

//

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } [1 – 5]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } أي : ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فعل بمعنى المفعول ، كقصَص بمعنى مقصوص .

قال ابن تيمية : كلُّ ما فلقَه الربُّ فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحَب والنَّوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح ، فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، وأما من قال : إنه وادٍ في جهنم أو شجرة في جهنم ، أو : إنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة ، بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كلِّ ما انفلق أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار ، فإن في تخصيصه هذا بالذكر . ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى

//

وقوله تعالى : { مِن شَرِّ مَا خَلَقَ } أي : من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم . كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار .

//

وقوله سبحانه : { وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ } قال أبو السعود : تخصيص لبعض الشرور بالذِّكر ، مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة ، وأدعى إلى الإعاذة . وقال الإمام ابن تيمية : وإذا قيل : الفلق يعمُّ ويخص ، فبعمومه استعيذ من شر ما خلق ، وبخصوصه للنور النهاريّ استعيذ من شر غاسق إذا وقب ؛ فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله :

{ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ } [الإسراء : 78] ، وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة قالوا : ومعنى { وَقَبَ } دخل في كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل لليل : غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم < نظر إلى القمر فقال : يا عائشة ! تعوَّذي بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب > . وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : < الغاسق النجم > . وقال ابن زيد : هو الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه . قال ابن قتيبة : ويقال : الغاسق القمر إذا كسف واسودَّ . ومعنى وقب دخل في الكسوف . وهذا ضعيف فإن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى :

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء : 12] ، فالقمر آية الليل ، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل ؛ فأمره بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته . والدليل مستلزم للمدلول . فإذا كان شر القمر موجوداً ، فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره . فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى : < هو مسجدي > هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً ، وكذلك قوله عن أهل الكساء : < هؤلاء أهل بيتي > مع أن القرآن يتناول نساءه ؛ فالتخصيص لكونه المخصوص أولى بالوصف ؛ فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن مالا تنتشر بالنهار ، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ؛ فالشر دائماً مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم ، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ، ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته ، وأبو معشر البلخيّ له " مصحف القمر " يذكر فيه من الكفريات والسِّحريات ما يناسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

//

ثم خص تعالى مخلوقات أُخَر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررها وعسر الاحتياط منها ؛ فلا بد من الفزع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه : { وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } قال ابن جرير : أي : ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عُقد الخيط حين يَرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل ، فعن مجاهد : الرقي في عقد الخيط . وعن طاوس : ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين ، ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشري : النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ويَنفثن عليها ويرقين . والنفث : النفخ مع ريق ، ولا تأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثَمَّ إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرّعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبؤون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه :

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ، ومن إثمهن في ذلك .

والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن .

الثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . انتهى .

وفي الآية تأويل آخر ، وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله ، قال : النفاثات النساء ، والعقد عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال ، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حبلهُ سهلاً . فمعنى الآية : أن النساء لأجل كثرة حبِّهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي ومن عزيمة إلى عزيمة ؛ فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن .

كقوله :

{ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ } [التغابن : 14] ، فكذلك عظم الله كيدهن فقال : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل في " التأويلات " عن أبي بكر الأصم أنه قال : إن حديث < سحره صلوات الله عليه > ، المروي هنا ، متروك لِما يلزم من قول الكفرة أنه مسحور . وهو مخالف لنص القرآن حيث أكذبهم الله فيه . ونقل الرازي عن القاضي أنه قال : هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول :

{ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } [المائدة : 67] وقال : { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } [طه : 69] ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة ؛ ولأنه لو صح ذلك لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكلُّ ذلك باطلٌ ، ولكان الكفار يعيرونه بأنه مسحور . فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة ، ولحصل فيه – عليه السلام – ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى . ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان مخرَّجاً في الصحاح ؛ وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالماً من النقد ، سنداً أو معنى ، كما يعرفوه الراسخون . على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

قال الإمام الغزالي في " المستصفى " : ما من أحد من الصحابة إلا وقد ردَّ خبر الواحد ، كردِّ عليٍّ رضي الله عنه خبر أبي سنان الأشجعي في قصة بروع بنت واشق ، وقد ظهر منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردِّ عائشة خبر ابن عمر في < تعذيب الميت ببكاء أهله عليه > ، وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمثال ذلك مما ذكر . أورد الغزالي ذلك في مباحث : خبر الآحاد في معرفة شبه المخالفين فيه ، وذكر رحمه الله في مباحث الإجماع إجماعَ الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية في " المسودة " : الصواب أن من رد الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاده غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً ، فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى

وقال العلامة الفناري في " فصول البدائع " : ولا يضلل جاحد الآحاد ، والمسألة معروفة في الأصول ، وإنما توسعت في نقولها لأني رأيت من متعصبة أهل الرأي مَن أكبر ردَّ خبر رواه مثل البخاري ، وضلل منكره ؛ فعلمت أن هذا من الجهل بفنِّ الأصول ، لا بأصول مذهبه ، كما رأيت عن الفناري . ثم قلت : العهد بأهل الرأي أن لا يقيموا للبخاري وزناً ، وقد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ ، فمتى صادقوه حتى يضللوا من رد خبراً فيه ؟ وقد برهن على مدعاه . وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث في هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً ، وقد أوسع المقال فيه شراح " الصحيح " وابن قتيبة في شرح " تأويل مختلف الحديث " والرازي . والحق لا يخفى على طالبه . والله أعلم .

//

{ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } قال الزمخشري : أي : إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على حسده بل هو الضار لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره .

//

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ *الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ } [1]

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } أي : ألجأ إليه وأستعين به ، و { رَبِّ النَّاسِ } الذي يُربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلِّهم والخالق للجميع

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

{ مَلِكِ النَّاسِ } أي : الذي ينفذ فيهم أمرُه وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره .

//

{ إِلَهِ النَّاسِ } أي : معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذي هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها .

//

{ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ } أي : الشيطان ذي الوسوسة . وقد زعم الزمخشري ومن تبعه ، أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير : ذي . وحقق غير واحد أنه صفة كالثرثار ، وأن فعلالاً مصدر : فعلل بالكسر ، والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام في ذلك الإمام ابن القيم في " بدائع الفوائد "
{ الْخَنَّاسِ } أي : الذي عادته أن يخنس – أي : يتأخر – إذا ذكر الْإِنْسَانُ ربَّه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة ، وكلَّما تنبَّه العبدُ فذكر اللهَ خنس .

//

{ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } أي : بالإلقاء الخفيّ في النفس ، إما بصوت خفيّ لا يسمعهُ إلا من ألقي إليه ، وإما بغير صوت .
قال ابن تيمية : و الوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال : فلان يوسوس فلاناً ، و قد وشوشته إذا حدثه سراً في أذنه ، وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحليّ ، لكن هو بالسين المهملة ، أخص .
وقال الإمام : إنما جعل الوسوسة في الصدور ، على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقوله تعالى : { مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } بيان للذي يوسوس على أنه ضربان : ضرب من الجِنَّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، وضرب من الإنس كالمضلِّين من أفراد الْإِنْسَان ، كما قال تعالى :

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } [الأنعام : 112] ، وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كلّه من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن ؟ قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال :

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } [ق : 16] ، فالشر من الجهتين جميعاً . والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين .

وقال أيضاً : الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس ، فليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

لطائف :

الأولى : قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ؛ لأنهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحلُّ بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس منهم ومن الجِنَّة ؛ فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم .

وقال الناصر : في التخصيص جرى على عادة الاستعطاف . فإنه معهُ أتمّ .

الثانية : تكرر المضاف إليه وهو : الناس باللفظ الظاهر ؛ لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة ، فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق لهُ عطف البيان ، وأدل على شرف الْإِنْسَان .

وقيل : لا تكرار لجواز أن يراد بالعام بعض أفرادهُ ؛ فـ : الناس الأول بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية ، والثاني الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم ، والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمّل .

الثالثة : في تعداد الصفات العليا هنا إشارة إلى عِظَم المستعاذ منه ، وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به في السورة قبلُ ، وكررهُ هنا إظهاراً للاهتمام في هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة : قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام ؛ ولهذا قال المفسرون في قوله : { مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } قالوا : ما تحدث به نفسه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : < إن الله تجاوز

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لأمتي ما تحدِّث به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به > ، وهو نوعان : خبر وإنشاء ، فالخبر إما عن ماض وإما عن مستقبل ، فالماضي يذكره والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره ؛ فهذه الأمانيّ والمواعيد الكاذبة ، والإنشاء أمر ونهي وإباحة .

الخامسة : قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنهُ تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دلّ على أنهُ فجور ، فهو من الوسواس المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهتهُ نفسك لنفسك فهو من الشيطان ؛ فاستعِذ بالله منه ، وما أحبَّتهُ نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنهُ .

السادسة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كلِّ ركن وشرط من أعمال الصلاة ، ما مثاله : وإذا قلت :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومرصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ؛ حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له ، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفَّق لها ، وإنَّ استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه ، بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ؛ فإن من قصده سبُعٌ أو عدوٌّ ليفترسه أو ليقتله فقال :

أعوذ منك بهذا الحصن الحصين– وهو ثابت على مكانه ذلك– لا ينفعه ، بل لا يفيده إلا بتبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محابُّ الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه : لا إله إلا الله إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم

: < ولا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي > . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه ، فأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعوذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لي من قبل أن أراه في كلام حجَّة الإسلام ، حتى رأيته فحمدت الله على الموافقة .

السابعة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " أيضاً ، في بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس : ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب في مثال قبَة مضروبة لها أبواب تنصبُّ إليه الأحوالُ من كل باب ، ومثالهُ أيضاً مثال هدف تنصبُّ إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تصبُّ فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس ، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الْإِنْسَان ،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وسبب قوة المزاج ، حصل منها في القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر .

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة في الخواطر ، وأعني الخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعني به إدراكاته علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر ؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها .

والخواطر هي المحركات للإرادات ، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة . فمبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو للشر ، أعني إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعني الداعي إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم أن كل حادث فلابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دلَّ ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخبر يسمى توفيقاً ، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغوائاً وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة ، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنهُ ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر ؛ فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

ثم قال الغزالي : ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذِكر سوى ما يوسوس به ؛ لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان . وذكر الله تعالى هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ، ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحَوْل والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتَّقون الغالب عليهم ذِكْرُ الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } [الأعراف : 201] .

ثم قال : فالوسوسة هي هذه الخواطر ، والخواطر معلومة ؛ فإذن الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ، ويفتقر إلى اسم يعرّفه ، فاسم سببهُ الشيطان ، ولا يتصور أن ينفك عنه آدميّ ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ؛ فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

//

This file was downloaded from QuranicThought.com